من أعالي الجبل المقدس

ويليام داريمبل

قام البريطاني ويليام داريمبل بجولة في سوريا وفلسطين ومصر ولبنان في عام ١٩٩٤، للبحث عن الآثار المعمارية للإمبراطورية البيزنطية، التي سقطت في القرن السابع للميلاد. وقد اعتمد في جولته على كتاب «المروج الروحانية » الذي كتبه الراهب يوحنا موسكوس، مؤرخ الإمبراطورية البيزنطية، والأب الروحي لسوفرونوس، آخر أساقفة القدس، الذي سلّم مفاتيح المدينة المقدسة للخليفة عمر بن الخطاب.

قبل ذلك التاريخ، قام موسكوس وتلميذه سوفرونوس بجولة في أنحاء الإمبراطورية، وكان كتاب الأوّل خلاصة لمشاهدات وانطباعات تلك الجولة. مات موسكوس في القسطنطينية لكنه أوصى بنقل رفاته إلى دير العبيدية في فلسطين، وعندما توفي سوفرونوس بعد الفتح العربي بقليل أوصى بدفن جثمانه إلى جوار معلمه في الدير نفسه.

حفل كتاب « المروج الروحانية » بأوصاف للأديرة وأماكن العبادة في القدس وغيرها من حواضر الإمبراطورية، إلى جانب حكايات عن حياة الرهبان في فلسطين القرنين السادس والسابع بعد الميلاد. وقد حاول داريمبل تقصي ما تبقى من تلك الآثار في فلسطين. وفي المقتطفات التالية مشاهداته وانطباعاته عن المسيحيين في المدينة المقدسة، والمخاطر التي تتهدد وجودهم هناك بفعل سياسة تهويد المدينة، وإرغام مواطنيها الأصليين من مسلمين ومسيحيين على مغادرتها، ناهيك عن تعريض آثارها وخصائصها المعمارية الأصيلة للخطر. وهي بهذا المعنى شهادة بصرية معاصرة عن التعددية الحضارية والثقافية لمدينة تعيش لحظة مأزومة من لحظات تاريخها الطويل.

شارع أرارات، حي الأرمن، البلدة القديمة ـ القدس، ٤ نوفمبر ١٩٩٤

حي الأرمن من أكثر أحياء القدس ميلاً إلى التكتم. فالأحياء المسيحية والإسلامية واليهودية تطل على الخارج، ويستحيل ألا تبتلع المتجوّل في شوارعها الحجرية الأسواق الشعبية ودكاكين الخردوات، والمقاهي والمطاعم. لكن حي الأرمن شديد الاختلاف. ويسهل المرور بجواره دون الانتباه إلى وجوده. مدينة داخل مدينة، يتم الدخول إليها عبر بوابة خاصة، وتسوّرها أسوار عالية، خاصة.

تأخذك البوابة إلى ممرات وأزقة مكتظة. نزلت في أحد تلك الأزقة في حجرة مقبّبة تفوح برائحة الغبار والقدم، كأنها كنيسة من كنائس القرون الوسطى. هناك، في الشوارع المحيطة بحجرتي تتوارى، خلف ستائر مخرّمة تحركها ريح قلقة، حيوات جماعة من النازحين، تختلف عن جيرانها في اللغة، والديانة، والتاريخ والثقافة.

كانت القدس في زمن يوحنا موسكوس مأهولة بالعديد من هذه الجماعات: جماعات كبيرة من الجورجيين والأرمن والسوريين وأهالي غاليسيا والإيطاليين وحتى بعض الفرنجة. وقد جاء معظم هؤلاء للحج ومكثوا في المدينة. ورغم أن المدينة ما زالت مليئة ببعثات كنسية صغيرة، قوامها رجال دين في مهام مؤقتة، إلا أن حي الأرمن يمثل آخر الجماعات الكبيرة لمسيحيين منفيين يعيشون في القدس بصفة دائمة.

ليست المفاجأة اختفاء الآخرين، بل نجاح الأرمن في البقاء. فرغم إشارة المزامير إلى «سلام القدس» شهدت المدينة المقدسة على الدوام مزيدا من السلب والنهب في الحروب أكثر من أي مكان آخر يضاهيها من حيث المساحة في كوكب الأرض. هناك حارب بنو إسرائيل اليبوسيين، وهنا حارب الكنعانيون، والفلسطينيون، والآشوريون، والبابليون، والفرس، والإغريق، والرومان، وهنا ورث العرب هؤلاء في آخر المطاف، وفقدوا السيطرة أمام حملات صليبية متلاحقة، وهنا حارب الأتراك، والبريطانيون، والإسرائيليون. لكل عطفة شارع في القدس شهيدها أو نصبها التذكاري، أو قديسها، أو مزارها. تربتها معجونة بدم مسفوك باسم الدين، ومستشفيات الأمراض العقلية فيها مليئة بأشخاص يزعمون تقمّص داود، وإشعيا، ويسوع، والقديس يوحنا، أو محمد.

ومع ذلك، يشكل حي الأرمن ـ وسط هذه الحرب بين حقائق متصارعة ويقينيات متنافسة ـ نموذجا بارزا لاستمرارية مسالمة. كان الأرمن في القرن الثالث للميلاد أوّل شعب يعتنق المسيحية، وسرعان ما أدركتهم حماسة الحج إلى الأماكن المقدسة. ربما لم تكن فلسطين بالبلد الآمن، لكنها كانت في أغلب الأحيان أشبه بالجنة مقارنة ببلادهم المضطربة. وفي زمن يوحنا موسكوس، كان في القدس ما يزيد عن سبعين كنيسة أرمنية.

تعلّم أرمن القدس مهارة العيش تحت حكم الأجانب. ففي القرن الثامن، عندما كانت القدس تحت حكم السلالة الأموية، نجح الأرمن في تدبير أمورهم حتى أن اثنتين من أمهات الخلفاء

كانتا أرمنيتين. وعندما احتل الصليبيون المدينة في عام ١٠٩٩، كانت أوّل ملكتين من ملكات القدس أرمنيتين. وتدبّر الأرمن أمرهم بمهارة في وقت لاحق، عندما فتح صلاح الدين المدينة، فكانوا الطائفة المسيحية الوحيدة التي نجت من الطرد أو الرق. وأصبح حي الأرمن بعد عام ١٩١٥، في أعقاب المجزرة التي أودت بحياة حوالي مليون ونصف المليون من الأرمن على يد جماعة تركيا الفتاة، ملجأ العديد من الناجين المُتعبين. تضاعف عدد ساكني الحي خلال سنوات قليلة، وفي الوقت الحاضر يشكل نسل الناجين حوالي نصف عدد سكان الحي.

وبحكم تمكنهم من العيش في عهود طغاة مثل السلطان المملوكي بيبرس حاكم مصر، يُتوقع من أرمن القدس النظر إلى سيطرة إسرائيل على البلدة القديمة كفترة من الفترات الرحيمة نسبياً في تاريخهم. ففي التحليل الأخير، ثمة الكثير من الأشياء المشتركة بين اليهود والأرمن: حياة التشرّد، التجارة، والاضطهاد والمعاناة. ومع ذلك ليس الأمر على هذا القدر من التبسيط.

على مقربة من حجرتي، في دير يغص بأصص النباتات وأشجار الدوالي والشجيرات المزهرة، يقيم المطران هاغوب سركسيان، الصديق الذي عرفته في زيارة سابقة. يهوى المطران دراسة الآثار القديمة وقد رمّم الكثير من أماكن العبادة التي يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى في الحي. وتنعكس حماسته للعمارة الأرمنية على مكان إقامته المزدحم بنماذج خشبية صغيرة لكنائس أرمنية، أُعيد بناؤها بمثابرة نقلاً عن رسومات قديمة وصور فوتوغرافية على ألواح فضية [طريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي].

||

المطران هاغوب رجل هادئ صغير الجسم يرتدي زي الرهبان، لحيته صغيرة مشذبة خطها الشيب، يفيض بالحيوية ويحب القيل والقال، لكنه يميل ـ وتلك نـزعة مبررة لدى الأرمن ـ إلى سرد حكايات محزنة عن المجزرة. كانت أمه الناجية الوحيدة في مجزرة عام ١٩١٥ من أسرة يبلغ عدد أفرادها ٥٠ شخصاً، وكان أبوه، العالم المعروف في علم النبات وعلم الأعراق البشرية، أحد المثقفين الأرمن القلائل الذين نجوا من حملات التطهير العرقية على يد جماعة تركيا الفتاة. لم ينج الأب إلا بفضل نجاحه في المشي سيرا على الأقدام مسافة خمسة آلاف ميل عبر الأناضول والمشرق متخفياً في زي امرأة تركية ترتدي التشادور. وتمكن قبل وفاته في القدس، متأثراً بصدمة التجربة، من كتابة تاريخ ربما كان أفضل شهادة عيان عن مجزرة الأرمن.

وبينما كنّا في مقر إقامته نحتسي الكونياك الأرمني القوي، تكلّم المطران بغضب عن قرار اتخذه التلفزيون الإسرائيلي في وقت سابق. ففي اللحظة الأخيرة قرروا بطريقة غير مفهومة إلغاء عرض أحد الأفلام الوثائقية، المقرر عرضها في وقت الذروة، عن مجزرة الأرمن. وقد قوبل القرار بردود فعل غاضبة ليس من جانب الأرمن وحسب، بل ومن جانب العديد من

الليبراليين الإسرائيليين أيضاً، لكن المسؤولين عن التلفزيون رفضوا التراجع عن قرارهم.

« يصر الإسرائيليون دائما على تفرّد الهولوكوست الخاص بهم » قال هاغوب « يبدو كأنهم يريدون لهولوكوست الأرمن أن يصبح نسيا منسيا، وكأنهم يريدون احتكار الألم ». هز المطران العجوز رأسه : « بمليون طريقة وطريقة يجعل الإسرائيليون حياتنا صعبة، ويعتقد كثيرون من الأرمن أنهم يريدون تقليص عددنا ».

قلت: « هذا اتهام قوي ». كان المطران، خلال زيارتي السابقة، مهتما بماضي الأرمن إلى حد يشغله عن مجريات السياسة. لذلك، شعرت بالدهشة عندما شرع في الحديث، بعد احتساء كأسه الثاني، عن خوفه من المستقبل.

« يقول العديد من اليمينيين الإسرائيليين في الوقت الحاضر ينبغي أن تكون القدس حكرا على اليهود وحدهم » قال المطران رافعا كأسه إلى شفتيه مرة أخرى « يقولون القدس عاصمتهم الأبدية، ونحن نتعدى على مدينتهم ».

وقد صُدم الأرمن ـ قال المطران ـ قبل سنوات قليلة عندما استخدم مستوطنون أصوليون يهود من جماعة عطيرت كوهنيم الواحدة تلو الأخرى من الشركات الوهمية المسجلة في بنما ليستأجروا عن طريق طرف ثالث، ويسيطروا على هوسبيس مار يوحنا قرب كنيسة القيامة في قلب الحي المسيحي. وازدادت صدمة الأرمن حدة عندما اتضح أن المستوطنين حصلوا على مليوني دولار من الحكومة لتحويل الشراء إلى أمر نافذ المفعول.

لا يحق لغير اليهود السكن في الحي اليهودي بأمر من المحكمة العليا، وقد جرى طرد جميع السكان العرب من الحي عام ١٩٦٧. في الوقت نفسه، جرى في العاشر من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ هدم حارة المغاربة برمتها لبناء ساحة كبيرة الحجم عند حائط المبكى. يرجع تاريخ تلك الحارة إلى القرن الرابع عشر، كانت تضم مسجد ومزار الشيخ عيد، ورغم القيمة الأثرية ل ١٣٥ من المباني هي جماع الحارة، جرى تجريفها وأرغم ٦٥٠ فلسطينيا كانوا يعيشون فيها على مغادرة بيوتهم. ورغم أن الألفين من اليهود الذين فقدوا أملاكهم في الحارة عام ١٩٤٨ استعادوها، لم يسمح لأحد من الثلاثين ألفا من الفلسطينيين الذين أُخرجوا من الضواحي المسيحية للقدس الغربية في عام ١٩٤٨ بالعودة إلى بيوتهم القديمة، ولم تصدر قوانين معاكسة تحظر على اليهود الإقامة في الأحياء الأرمنية والمسيحية والإسلامية في المدينة القديمة. الواقع أن وزارة الإسكان الإسرائيلية ترصد أموالا لاستيطانهم في تلك الأحياء، بذريعة أن لليهود حق الإقامة في كل مكان في مدينتهم المقدسة.

ومع حلول عيد الفصح عام ١٩٩٠ عندما تمت السيطرة على هوسبيس مار يوحنا، كانت جماعة عطيرت كوهنيم، وجماعات استيطانية راديكالية أخرى، قد استولت على ما يزيد عن ٤٠ عقارا في الحي الإسلامي، لكن الاستيلاء على الهوسبيس كان المحاولة الأولى من جانب المستوطنين لنقل جهودهم إلى الحي المسيحي. وهي محاولة سرعان ما تحوّلت إلى موضوع رئيسي للنـزاع في الساحة الدولية.

ذكرت الصنداي تايمز، اللندنية، أن راهبا يونانيا شق طريقه بالقوة إلى الهوسبيس لمنع المستوطنين من نهبه. وقد سأل الراهب مستوطنا أن يعطيه لوحة عن العشاء الأخير، لكن الإسرائيلي حطم إطار اللوحة على ركبته وداسها بقدميه. وفي أعقاب الحادثة، قاد بطريرك الأرثذوكس الطاعن في السن تظاهرة احتجاج في خميس العهد إلى الهوسبيس. حاول راهب خلال المظاهرة نـزع نجمة داود وضعها المستوطنون فوق صليب محفور على الباب، فقامت الشرطة الإسرائيلية المكلفة بحماية المستوطنين بدفع البطريرك إلى الأرض، ضربوه، وألقوا الغاز المسيل للدموع عليه وعلى رهبانه. صوّرت كاميرات التلفزيون الحادثة، وتسببت في مزيد من الاحتجاجات الدولية.

يعتقد هاغوب أن المستوطنين يصعدون جهودهم لشراء أرض أرمنية في البلدة القديمة. قال إن البطريركية تتلقى عشرات الاستفسارات شهرياً من وسطاء يمثلون مستوطنين يرغبون في دفع أسعار عالية جدا للحصول على موطئ قدم في حي الأرمن. من ناحية أخرى، تقدم آخرون بطلبات مباشرة للشراء، يقال أن إيريك شارون، مهندس الغزو الإسرائيلي للبنان، عرض مبلغ ٥,٣ مليون دولار مقابل قطعة أرض خالية تستعمل موقفا للسيارات وبعض البيوت الملاصقة.

« رفضنا، بالطبع » قال هاغوب « لكنهم على قدر كبير من التعصّب، ولن يكفوا أبدا » وأضاف متجهما « أشعر بخوف بالغ من المستقبل. عشنا هنا ١٦٠٠ سنة، ومع ذلك لا نعرف ما ينتظرنا في الغد، يزعم الإسرائيليون الدفاع عن الحرية الدينية، ولكن خلف ذلك القناع الكاذب يبذلون ما في وسعهم للحيلولة دون تطوّرنا، لم يمنحونا رخصة بناء واحدة منذ عام ١٩٦٧، وهدموا المباني غير القانونية. احتجنا إلى أربع سنوات للحصول على هاتف لعيادتنا الصحية، بينما حصل مخبر يشتغل مع الشين بيت [جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي] على خط للهاتف خلال أسبوع. الحي اليهودي مصان بعناية، لكن الشوارع في الأحياء الأخرى تنخسف بفعل انهيار نظام الصرف الصحي الذي يرجع إلى العهد العثماني. الوضع أسوأ بكثير في الحي الإسلامي. يعتقد الناس في الحي أن الإسرائيليين يريدون تحويل بيوتهم إلى أماكن غير قابلة للسكنى لإرغامهم على المغادرة، وتمكين المستوطنين من الاستيلاء عليها ».

قال المطران بصوت كالشخير: « بلغ بهم الحد استخدام نظام ضرائبهم لتعريض أصحاب دكاكيننا للإفلاس، فهم يفرضون عليهم ضرائب متعسفة. كان لدينا في عام ١٩٦٧ ما بين ٨٠ إلى ٩٠ من الدكاكين في البلدة القديمة، ماذا يوجد الآن ؟ ربما لم يبق لنا سوى ١٠ دكاكين، وحتى أقل. أفلست بقية الدكاكين لأن موظفي الضرائب لا يصدقون حسابات أصحاب الدكاكين. ففي بعض الحالات فرضوا ضرائب تتجاوز قيمة الدكان نفسها إلى حد كبير ».

أوحيت للمطران باحتمال معاناته من عقدة الاضطهاد إلى حد ما. فهز العجوز رأسه. «

اتضح خلال ضجة هوسبيس مار يوحنا أن الحكومة الإسرائيلية خصصت ٥,٧ مليون شيكل لشراء مزيد من المباني المسيحية والإسلامية في البلدة القديمة. لا يجادل أحد بشأن هذا المبلغ. هذا ليس من صنع الخيال. هناك سياسة حكومية متناغمة لتهويد البلدة القديمة، نحن عقبة في طريقها، وآجلا أم عاجلا سيعثرون على طريقة ما للتغلب علينا».

صبّ لي المطران كأسا ثانية من الكونياك « شاهدت في سني حياتي ذبول طائفتي كما تذبل شجرة مريضة. كان بين أبناء الطائفة أشخاص من أصحاب الملايين. في الوقت الحالي ينظر الشباب في جوقة الكنسية بازدراء إلى أقرانهم الذين يحصلون على عمل في المطاعم الإسرائيلية، ويهاجر الأكثر طموحا وموهبة إلى أميركا، لإدراكهم بانسداد الأفق أمامهم في هذا المكان. ولا يقتصر الأمر على الشباب، تهاجر عائلات بأكملها ».

في شبابه، قال المطران، كان ما يزيد عن عشرة آلاف من الأرمن في فلسطين، ولا يوجد في الوقت الحاضر ما يزيد عن ألفين. انكمشت البنية الاجتماعية للطائفة. كان لدينا أيام زمان فرقة مسرحية وخمسة نواد، ومسرحيات، وحفلات موسيقى، واجتماعات وحفلات راقصة. أما في الوقت الحاضر فالحي مكان ساكن، غادر أصحاب الطاقة والقدرة وصنعوا لأنفسهم حياة جديدة في بوسطن ونيويورك. سقطت الظلال على حي الأرمن، وانكمش على نفسه.

صادفت في طريق العودة إلى حجرتي في ذلك المساء بعض المراهقين الأرمن، ومن المدهش أن يأس المطران تجلى فيهم. « ليس لدينا ما نفعله هنا » قالت إحدى البنات « لا شئ، فإذا صادف الحظ الأولاد سينتهي بهم إلى غسل الصحون، أو العمل في البناء. بالنسبة للبنات ثمة فرص أقل، يجب أن تكون يهوديا لتحصل على عمل جيد ».

وقال فتى آخر، اسمه كريكور، أنه شهد الشهر الماضي حادثة طعن، فاعتقلته الشرطة الإسرائيلية، بطريقة عشوائية، إلى جانب خمسمائة من الشباب غير اليهود، اقتادوه إلى مركز للشرطة، ضربوه، وأرغموه على الوقوف طيلة اليوم تحت الشمس بلا ماء. وهي معاملة أصبحت من الأشياء شبه الروتينية في زمن الانتفاضة.

أثنت البنات على كلامه. قالت إحداهن قبل أسبوع أشار يهودي أرثذوكسي من سيارته الواقفة خارج البوابة الرئيسية للحي، فكّرت أن الرجل ضل الطريق، ويحتاج إلى إرشادات، وعندما انحنت لتتكلم معه بصق في وجهها واندفع مسرعا. لقد تعبت من الحياة هنا وتريد الهجرة إلى بوسطن، حيث يقيم بعض أبناء عمومة بعيدة.

« الإسرائيليون يحكموننا ولا نملك المواطنة الإسرائيلية » قال البنت « لا نملك حق التصويت، ولا نفوذ لدينا ». وأضاف كريكور: « يدفعوننا إلى الإحساس وكأننا قذارة يريدون التخلّص منها، أو على درجة من القذارة لا تؤهلنا للعيش في هذه المدينة ».

« نحن جميعا نريد المغادرة » قالت البنت. « الحياة اليومية صعبة جدا في القدس، جعلونا نكافح من أجل كل شئ ».

ولم تكن تلك مشكلة الأرمن وحدهم. فقد اكتشفت في الأيام التالية خلال تجوالي في الحي المسيحي وحديثي مع المسيحيين الفلسطينيين أن المخاوف تنتاب سكان البلدة القديمة بشأن استمرارية الوجود المسيحي في القدس على المدى البعيد. وسواء كانوا محقين أو مخطئين، يؤمن الفلسطينيون كلهم بوجود حملة منظمة لطردهم من المدينة، أو على الأقل جعل الحياة صعبة إلى حد يدفع العدد الأكبر منهم إلى مغادرة المدينة بمحض إرادتهم. كان المسيحيون ٥٢ بالمائة من سكان البلدة القديمة عام ١٩٢٢. ويشكلون الآن ٥,٢ بالمائة من سكان المنطقة الواقعة في حدود بلدية القدس. وفي الوقت الحاضر، يقيم في سيدني [استراليا] مسيحيون ولدوا أصلا في القدس أكثر من المسيحيين المقيمين في القدس نفسها. لقد تراجعت الأغلبية المسيحية في البلدة القديمة منذ الأربعينات، ويتفق الجميع في الوقت الحاضر أنها ربما لن تشهد وجودا مسيحيا دائما في المستقبل القريب.

يعتبر هذا التناقص الدرامي في عدد المسيحيين الأكثر بروزا في الشرق الأوسط الحديث، باستثناء الأناضول في تركيا، حيث أسفرت المجازر وعمليات الطرد، التي بلغت الذروة في مذبحة الأرمن عام ١٩١٥، ونقل السكان بين اليونان وتركيا في عام ١٩٢٢، عن وجود بضعة آلاف من المسيحيين هناك، بينما كان عددهم في نهاية القرن [التاسع عشر] حوالي أربعة ملايين. حدث تناقص المسيحيين في فلسطين خلال هذا القرن بصورة تدريجية، لكنه لم يكن أقل أثرا مما حدث في تركيا.

كان المسيحيون في فلسطين الانتدابية عام ١٩٢٢، أي قبل ستة وعشرين عاما من إنشاء دولة إسرائيل، حوالي عشرة بالمائة من عدد السكان. كانوا أكثر ثراء وتعليما من أقرانهم المسلمين. كانوا يملكون معظم الصحف تقريبا، ويشغلون نسبة من الوظائف العليا في الإدارة المدنية للانتداب لا تتناسب مع حجمهم السكاني. ورغم أغلبيتهم العددية في مدينة القدس القديمة ـ أغلبية تواصلت دون انقطاع تقريبا منذ القرن الرابع للميلاد ـ غادر قادتهم وتجارهم الشوارع الضيقة حول كنيسة القيامة وطريق الآلام، وبنوا لأنفسهم دارات سكنية فاخرة في ضواحي القدس الغربية مثل الطالبية والقطمون والبقعة ـ التي يسكنها الآن إسرائيليون أثرياء من رجال الأعمال وأعضاء الكنيست.

بدأت هجرة المسيحيين الفلسطينيين منذ عام ١٩٤٨، خلال الحرب التي أعقبت انسحاب القوات البريطانية من فلسطين، حيث هرب أو طرد خلال العمليات العسكرية ٥٥ ألفا من المسيحيين الفلسطينيين ـ ٦٠ بالمائة من عددهم الإجمالي ـ إلى جانب ٦٥٠ ألفا من المسلمين الفلسطينيين. وعندما احتلت إسرائيل الضفة الغربية في حرب الأيام الستة، وقعت هجرة أخرى بين عامي ١٩٦٧ ـ ١٩٩٢ ـ غادر خلالها حوالي ٤٠ بالمائة من المسيحيين في المناطق المحتلة آنذاك ـ ١٩ ألفا من الرجال والنساء والأطفال ـ بحثا عن حياة أفضل في مكان آخر. وفي الوقت الحاضر تعيش الغالبية العظمى من المسيحيين الفلسطينيين في المنفى خارج فلسطين : لم يبق سوى ١٧٠ ألفا منهم داخل إسرائيل والضفة الغربية، مقارنة بأربعمائة

ألف يعيشون خارج الأرض المقدسة، سواء في مخيمات مزرية للاجئين في لبنان، أو في أماكن أخرى.

يشكل المسيحيون في الوقت الحاضر أقل من ربع واحد بالمائة من سكان إسرائيل والضفة الغربية. وما زال معدل هجرتهم مرتفعا، ضعف معدل هجرة المسلمين. لا تنجم الهجرة عن تعرّض المسيحيين لمعاناة أكثر من المسلمين، بل عن ارتفاع مستواهم التعليمي الذي يمكّنهم من المغادرة والحصول على عمل في الخارج. ولم تفعل مسيرة السلام المتعثرة حتى الآن ما من شأنه وقف هذا الفيضان من المهاجرين. كما أظهر استطلاع للرأي أجرته جامعة بيت لحم أن لدى خمس المسيحيين الفلسطينيين الباقين في أرض أجدادهم أمل الهجرة في المستقبل القريب.

مسألة الهجرة هذه شديدة الخطورة. فمع مغادرة المسيحيين المحليين، ستبقى أكثر المزارات أهمية في عالم المسيحية مجرد متاحف، تجري صيانتها لإشباع حب الاستطلاع لدى السوّاح. ستكف المسيحية عن الوجود كديانة حية في الأرض المقدسة، وينشأ فراغ كبير في قلب العالم المسيحي. وكما قال رئيس أساقفة كانتربري في الآونة الأخيرة محذرا تتعرض المنطقة، التي كانت ذات يوم مركزا قويا للمسيحية، لخطر التحوّل إلى « متنزه للبكاء على الأطلال، خلال خمسة عشر عاما ».

يبدو مستقبل المسيحيين في القدس قاتما على وجه الخصوص، بفعل تركيز المنظمات الاستيطانية اليهودية على المدينة المقدسة. ترتفع حول القدس الشرقية أطواق المستوطنات الإسرائيلية، وتواصل الجماعات الاستيطانية الراديكالية داخل البلدة القديمة جهودها لشراء الأرض في الأحياء الإسلامية والمسيحية والأرمنية. فخلال عشر سنوات من الاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية، جرت مصادرة واستيطان ٠٦٥,٣٧ آكر [الآكر الواحد يساوي ٤٠٠٠ من الأمتار المربعة] من الأراضي العربية، ولم يبق بين أيدي الفلسطينيين في الوقت الحاضر سوى ١٣ بالمائة من القدس الشرقية.

تدرك مختلف الكنائس المسيحية في القدس خطورة وضعها تمام الإدراك. وقد اشتهرت الطوائف الدينية المسيحية الممثلة في المدينة المقدسة، وعددها ٤٧، بنزاعاتها الصغيرة اللامجدية: تنشر الصحف سنويا في مناسبة عيد الفصح قصص خلاف الروم الأرثذوكس مع الكاثوليك حول تنظيف إطار هذه النافذة أو تلك في كنيسة القيامة أو كنيسة المهد في بيت لحم. ورغم ذلك، توّحد المطارنة ورؤساء أساقفة الكنائس الرئيسية في عام ١٩٨٩ ـ ربما للمرة الأولى منذ الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥ ـ لإصدار مذكرة سنوية مشتركة « كي يطلع الناس في العالم على حياة شعبنا، هنا، في الأرض المقدسة، شعبنا المحروم من حقوقه الأساسية .. وللتعبير عن قلقنا العميق وانزعاجنا من تنامي الإحساس بعدم الأمان والخوف بين أفراد شعبنا وكنائسنا.. [الذي] يشكل تهديدا خطيرا لمستقبل المسيحية وحقوقها في الأرض المقدسة ».

ومع ذلك، رغم ما يتسم به موقف المسيحيين من عجز، يظهر قادة الكنائس المسيحية قدرا مدهشا من التحدي. وقد حظيت يوم أمس، بفضل رسالة توصية من الراهب ثيوفانيس، بلقاء قصير مع ديودوروس، بطريرك القدس للروم الأرثذوكس. قادني سرب من رؤساء أساقفة ومطارنة يرتدون ثيابا كهنوتية سوداء إلى حجرة استقبال عالية مقببة، حيث يرمق بطاركة أرثذوكس منذ قرون من صورهم المعلقة على الجدران الحاضرين بنظرات جامدة. في وسط الحجرة، يجلس ديودوروس ـ صاحب المنصب الذي شغله سوفرونوس ذات يوم ـ مسترخيا على عرش من القطيفة الحمراء. لقد أصبح الآن رجلا طاعنا في السن، ومع ذلك ما زال ضخما متين البنيان تتدلى لحيته البيضاء على ثيابه الكهنوتية، ويشبه في جلوسه على عرشه العريض المذهب أسدا عجوزا ابيضت لبدته.

« هذه الأرض » هدر صوته « هذه الأرض المقدسة مروية بدماء الشهداء. لم تكن حياة المسيحيين سهلة هنا، ولا تختلف الأزمنة الراهنة عن غيرها. أدنا في وقت الانتفاضة اضطهاد رعيتنا، تدخلنا للإفراج عن السجناء، حملنا الطعام إلى الناس في منع التجوّل. ونحن نشارك شعبنا عذابه وطموحاته. هذه الأرض المقدسة لم تكن أبدا مكانا للتأمل الروحي الهادئ، ولم تشبه أمكنة تخلو من الاضطراب كجبل آثوس. لدينا في هذا المكان رسالة علينا محاولة تطبيقها والحفاظ على استمراريتها ».

سألت البطريك هل يعتقد أن نهاية الوجود المسيحي في القدس أصبحت وشيكة، وهل يعتقد أن رسالته بلغت نهايتها ؟

« في العهود البيزنطية عندما كانت الأرض المقدسة تحت حكمنا نحن الإغريق، كانت هذه المدينة مسيحية تماما » قال ديودوروس. « لا تستطيع مقارنة الوضع الحالي مع ذلك الزمن بطبيعة الحال: عددنا قليل في الوقت الحاضر. ومع ذلك لا يحكم الإنسان على الضوء بحكم الوعاء الذي يحتويه». اعتدل البطريرك في جلسته على العرش، قبض على أيقونة صغيرة الحجم في إطار من الذهب تتدلى من سلسلة حول عنقه قائلا: « حتى مصباح الزيت الصغير يمكن أن يمنح الضوء لحجرة كبيرة».

القدس، ١٠ نوفمبر

أصاب البطريرك: كانت القدس، على مدار ثلاثة قرون من الحكم البيزنطي في فلسطين، مدينة مسيحية، كما كانت في الواقع عاصمة العالم المسيحي من أوجه مختلفة. فقد نظر برابرة أوروبا العصور الوسطى، كما فعل البيزنطيون أنفسهم، إلى القدس باعتبارها سُرّة العالم، وحتى أواخر القرون الوسطى، احتلت المدينة مركز الأرض في خرائط العالم.

كان الأساقفة في كامل العالم المسيحي ينتظرون التعليمات من القدس حول كيفية القيام بصلوات أسبوع الآلام، وكيفية تنظيم المناسبات الدينية. وقد أرسل حجاج أوروبيون ـ مثل الراهبة الأسبانية إيغيريا ـ إلى أشخاص يتراسلون معهم، حكايات مفصلة تكاد تثير السخرية

عن الممارسات الطقوسية في مدينة القدس » بناء على معرفة بمدى سرورك يا صاحب الإحسان لمعرفة الطقوس الممارسة يوميا في الأماكن المقدسة ». وعندما أراد البابا غريغوري تمتين تحالفه مع اللومبارديين أرسل إلى ملكتهم قارورة زيت من مزار الصليب المقدس في القدس، كما كانت عيون العالم المسيحي مثبتة بقوة على القدس.

كانت تلك نقلة هائلة عما كان عليه الوضع في نهاية الإمبراطورية الوثنية. فلم ينظر الرومان إلى فلسطين كمقاطعة قليلة الأهمية محشورة بين بلاد أكثر غنى وحضارة مثل سوريا ومصر وحسب، بل تحوّلت القدس، أيضاً، منذ تدميرها على يد تيتوس في عام ٧٠ للميلاد إلى مجرد بلدة مغمورة تقطنها حامية عسكرية رومانية. وحتى عام ٣١٠ للميلاد كان حاكم فلسطين الروماني، المقيم في قيسارية (جنوبي حيفا الحديثة) يستطيع القول أنه لا يعرف أين تقع القدس. فعندما استنطق الحاكم أحد المتهمين المسيحيين وسأله عن مكان إقامته قال المسيحي: من القدس. ورد الحاكم ٭القدس، أين توجد القدس ؟ ».

لكن وصول قسطنطين إلى العرش وتبني المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية غيّر هذا الوضع إلى الأبد. وبين ليلة وضحاها أصبحت المقاطعة المغمورة أرضا مقدسة، تدللها وترعاها سلسلة متصلة من الأباطرة وزوجاتهم وحاشيتهم. وخلال سنوات قليلة من مرسوم التسامح الديني الرسمي تجاه المسيحية، الذي أصدره قسطنطين في ميلان عام ٣١٣ ميلادية، سافرت هيلانة، أم الإمبراطور، إلى القدس وأجرت سلسلة من الحفريات للعثور على البقايا المقدسة، حتى لو نجم اكتشافها لبقايا مثل خشب الصليب المقدس، كما لاحظ السير ستيفن رونسيمان باقتضاب ٭ عن معجزة من معجزات العناية الإلهية التي نادرا ما تجود بها السماء على علماء الآثار ». وفي المكان الذي عينته أمه بدقة كموضع للصلب والقيامة أمر قسطنطين ببناء » ليس أجمل كنيسة في العالم وحسب، بل بناء كنيسة تكون فيها الأشياء على درجة من الجودة إلى حد تتفوق فيه على المباني الجميلة في مدن العالم ». كما أمر ببناء كنائس في بيت لحم، في مكان المهد، وعلى جبل الزيتون.

وسرعان ما اقتفى الآخرون خطاه. ففي القدس عاشت الإمبراطورة إيودوكسيا، زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (باني أسوار القسطنطينية) لمدة ١٦ عاما، وأنفقت مليونا ونصف مليون قطعة ذهبية على مشاريع في المدينة، في زمن تكفي فيه قطعتان من الذهب لعيش معظم الناس حياة رغيدة نوعا ما لمدة عام على الأقل. وقد شملت هباتها القصر البطريركي، ترميم تحصينات المدينة، حلقة جديدة من الأسوار تجعل جبل صهيون ضمن حدود المدينة، كنيسة ودير القديس ستيفن، المكان الذي أقام فيه سوفرونوس آخر الطقوس الدينية قبل فتح المدينة المقدسة على يد الجيوش الإسلامية. كما بنت إيودوكسيا مستشفى للمجذومين قرب هيرودين في الضفة الغربية، وبرجا في براري اليهودية لحماية الرهبان من هجمات البدو. وفي غضون ذلك، جمع القديس جيروم في بيت لحم القريبة تحت جناحيه عددا من السيدات الرومانيات الثريات، كانت بينهن وارثة اسمها باولا » وهبت كل ثروتها

الدنيوية » قبل الحج إلى فلسطين، ورغم ذلك كان لديها من بقايا الثروة ما مكنها من بناء ديرين وخانا للمسافرين، إلى جانب تقديم المعونة لعدد كبير من الرهبان والمعوزين، بما فيهم القديس جيروم بطبيعة الحال.

وحتى النسّاك، الذين عاشوا حياة التقشف في كهوف وأودية اليهودية، كانوا من أبناء العائلات النبيلة. فالراهب فوتيوس، مثلاً، كان ربيب الكونت بيليزاريوس، أكبر قادة الإمبراطور جوستينيان. وقد هرب فوتيوس، حسب رواية بروكوبيوس، من غرف التعذيب السرية التي وضعته فيها الإمبراطورة ثيودورا، بعدما هدد بفضح مختلف الألاعيب الجنسية لوصيفاتها في بلاط القسطنطينية. تمكن فوتيوس من تضليل شرطة ثيودورا السريّة، وهرب إلى فلسطين، للعيش كراهب في مكان ما من الصحراء خارج القدس.

علاوة على ذلك، ثمة إشارات لدى القديس يوحنا موسكوس عن ثروة ومكانة العديد من الحجاج الورعين الذين استقروا في المدينة. فهو يسجل حكاية روتها له آما داميانا الناسكة التي تربطها صلة قرابة بالعائلة الملكية، وأم صديقه مطران البتراء. روت له كيف أقنعت إحدى بنات عمومتها من النبلاء بقبول صدقة امرأة فقيرة.

« في الزمن الماضي قبل دخولي في الرهبنة، اعتدت الذهاب إلى كنيسة القديسين كوزماس ودامیان [في القدس] وقضاء الليل هناك. كانت تأتي كل مساء عجوز، أصلها من فيرغيا غالاتيا [وسط تركيا الحديثة] وتعطي قطعا نقدية صغيرة لجميع الحاضرين في الكنيسة، وكانت في العادة تعطيني تلك الصدقة. وذات يوم جاءت إحدى قريباتي، وهي من قريبات الإمبراطور موريس التقي، من أجل الصلاة في المدينة المقدسة، ومكثت فيها لمدة عام. اصطحبتها بعيد وصولها إلى كنيسة كوزماس ودامیان، وبينما كنّا في المُصلّى قلت لقريبتي: « اسمعي، يا سيدتي، عندما تحضر امرأة عجوز لتوزيع قطعتين نقديتين على الحاضرين، أرجو أن تتواضعي وأن تقبلي منها » أجابت المرأة بامتعاض واضح « هل يتحتم على القبول ؟ » قلت لها « نعم ». « خذي النقود فالمرأة عظيمة لدى الرب، تصوم أيام الأسبوع كلها، وما تحصل عليه توزعه على الحاضرين في الكنيسة. خذي القطعتين وامنحيهما لشخص آخر. لا ترفضي صدقة هذه المرأة العجوز ».

« وبينما نحن في غمرة الحديث جاءت العجوز وشرعت في توزيع الصدقة. اقتربت مني بسكينة وهدوء وأعطتني بعض النقد، وأعطت لقريبتي أيضاً، قائلة « خذيها وكلي ». وأدركنا عندما ذهبت أن الله كشف للعجوز الفقيرة ما اقترحته على قريبتي، أي أن تقبل النقد وتهبه لشخص آخر. لذلك، أرسلت قريبتي أحد خدمها لشراء خضروات بالقطعتين، وحلفت بالله أن طعم الخضروات التي أكلتها كان كالعسل ».

وقد أسهم تدفق المال إلى الأرض المقدسة بواسطة عائلات الإمبراطورية الغنية، في ازدهار أنواع جديدة من التجارة. ولا شك أن السياحة الدينية، آنذاك، كما هي اليوم، عادت بالكثير على أصحاب الفنادق والمرشدين السياحيين. فمن المؤكد أن الجولات السياحية وكتب

الإرشادات ظهرت منذ القرن السادس للميلاد (بعض الكتب مزوّد بخرائط) وأصبحت متوفرة لتمكين الحجاج من فهم ما يرونه أمامهم. كما ازدهرت تجارة أخرى هي الآثار المقدسة. فقد مارست فلسطين نوعا من احتكار عظام العهد القديم، واحتكرت جزءا كبيرا من ذكريات العهد الجديد. جرى تصدير بقايا أشياء تتعلق بيوسف وصموئيل وزكريا وحبقوق، وغامليئيل والقديس ستيفن في تلك الفترة، وكذلك أغلال القديس بطرس، والمسامير التي ثبتت المسيح على الصليب، ولوحة لمريم العذراء رسمها القديس لوقا. واعتادت يهودية من سكان المدينة عرض ثوب لمريم العذراء، بينما عرض قساوسة بيت لحم على الحجاج، مقابل أجر، عظام الأطفال الذين ذبحهم الملك هيرود، أو على الأقل العظام التي لم تبع بعد للكنائس وجامعي الآثار في العاصمة. كانت الآثار الشهيرة غالية جدا ـ دفع ثيودوسيوس الثاني ثروة من القطع الذهبية إضافة إلى صليب ضخم من الذهب مقابل آثار القديس ستيفن ـ ورغم ذلك، حتى أكثر الحجاج فقرا كان يستطيع شراء قطعة صغيرة من البقايا، أشياء من نوع آثار أقدام المسيح، أو زيت من مصابيح الجلجة، أو بعض غبار سارت عليه خطى المسيح. ولا شك أن الحرفيين البيزنطيين المهرة وجدوا في تجارة الآثار مصدر دخل لا ينضب.

كانت لدى الكنيسة في فلسطين قوة تتجاوز قوتها في أي مكان آخر من الإمبراطورية. وعندما تمرّد أهالي السامرة في عام ٥٢٩ للميلاد لم يُرسل الإمبراطور جوستينيان قائدا عسكريا لإخماد التمرد، بل أرسل راهبا رفيع المستوى يدعى فوتيون. نجح فوتيون في مهمته بحماسة لا تنسجم مع حماسة الرهبان، فحاربهم، واحتل مناطقهم، وعذّب الكثيرين منهم، كما طرد آخرين إلى المنفى، وزرع قدرا كبيرا من الخوف في قلوب الناس. وتشير بعض المصادر أن عدد القتلى في حملات فوتيون التطهيرية بلغ مائة ألف من السامريين.

لكن القدس، على غرار فلسطين، لم تكن مليئة برجال الدين والنسّاك والحجاج السذّج فقط، بل كان عدد الناس العاديين أكبر من عدد رجال الدين دائما، وهي حقيقة سببت الضيق للقديس جيروم، الذي كان سريع الغضب. ففي رسالة إلى صديقه باولينوس، الذي يخطط لزيارة القدس، حذره من توّقع الوصول إلى مدينة من القديسين » فهي مكان مزدحم، فيها ناس من مختلف الأنواع: عاهرات، ممثلون، جنود، ومهرجون. زحام من الجنسين قد ترغب في تفاديه جزئيا في أماكن أخرى، لكنك تعاني من حضوره الكامل هنا ». وبالقدر نفسه، شعر غريغوري الشقيق الأصغر للقديس باسل بالتعاسة بسبب الطبيعة الأخلاقية لسكان القدس. كتب غاضبا » لو كانت رحمة الله أكثر وفرة في جوار القدس منها في أي مكان آخر، لما ارتكب الناس هنا ما يرتكبونه من المعاصي، فلا توجد أشياء معيبة لا يفعلونها، الخداع، الزنا، السرقة، الوثنية، السم والشجار والقتل من حوادث الحياة اليومية.. ماذا يثبت، إذن، في مكان تحدث فيه هذه الأشياء، وفرة الرحمة الإلهية ؟ ».

في الواقع، كان الرهبان أنفسهم أشخاصا يصعب قيادهم. وكانت ثمة ضرورة لمنعهم من دخول غزة بصفة دائمة بسبب إصرارهم على تعطيل العروض الليلية في المسرح،

ومختلف الاحتفالات التي اعتبروها « وثنية ». عندما احتج الرهبان على الألعاب الأولمبية في كالسيدون، على الشاطئ الآسيوي للبوسفور قبالة بيزنطة، ، قال المطران المحلي لزعيم المحتجين ألا ينسى أنه راهب وما عليه سوى «الجلوس في صومعته والتزام الهدوء ». ولكن في فلسطين كان عدد الرهبان أكبر بكثير، وكانوا أشد صلابة. ففي إحدى المرات نـزل الجيش لاستعادة النظام بعدما ثار الرهبان الفلسطينيون على مطران للقدس اعتبروه من المهرطقين. كما أفلت الزمام في عهد الإمبراطور المهرطق فالينس : عندما تظاهر الرهبان بعنف ضد مطران عيّنه الإمبراطور، فاضطر الأخير إلى ترحيل أعداد كبيرة منهم إلى المحاجر والمناجم الملكية في صحاري مصر العليا.

ومع ذلك، كانت ثورة الرهبان تنجح في بعض الأحيان. كان محظورا على اليهود، بحكم أحد القوانين الرومانية المتشددة القديمة، دخول القدس سوى مرة واحدة في العام بمناسبة عيد العُرُش، حيث يسمح لهم بالدخول والنحيب على حطام هيكلهم. وقد جرى تخفيف تلك الإجراءات نوعا ما على يد الإمبراطورة إيودوكسيا، مما تسبب في بهجة اليهود في كل مكان، وأثار حنق الرهبان المتشددين، وعندما احتشد اليهود بأعداد غير مسبوقة في جبل الهيكل، قاد الراهب السوري بارساوما مذبحة من أكثر المذابح عنفا ضدهم في ذلك الزمن، فهاجمهم وقتل العديد منهم. ادعى بارساوما أنه وأتباعه لم يهجموا على اليهود مباشرة بل قُتل اليهود بفعل « مقذوفات سقطت عليهم من السماء » لكن الناجين من اليهود قدموا شهادة مغايرة، حيث تمكنوا من القبض على ١٨ من أتباعه واقتادوهم إلى الإمبراطورة لمحاكمتهم. ورغم ذلك لم تتمكن حتى الإمبراطورة من عمل شئ في وجه ذلك الحشد من الرهبان: هدد قادتهم وسط الجموع بإحراق الإمبراطورة، وشرعوا في إنشاد ترانيم دينية «انتشر صوت الناس وتعاظم لفترة طويلة كأنه هدير البحر فارتعش سكان المدينة من الضجيج والصراخ». لم تجر محاكمة بارساوما والواقع أن الكنيسة السورية الأرثذوكسية طوّبته قديسا في وقت لاحق.

لكن فلسطين، رغم المذابح والتمرّد والاضطرابات الداخلية، شهدت زيادة هائلة في عدد السكان خلال الفترة البيزنطية. وأظهرت مسوح أثرية لعيّنات فخارية جمعت من الحقول في إسرائيل والضفة الغربية أن كثافة فخّار الفترة البيزنطية تبلغ أربعة أضعاف الفترة الإسرائيلية القديمة وهذا يعني أن عدد السكان في الفترة البيزنطية أكبر بكثير من عددهم في قرون سبقتها. هناك مناطق كاملة لم تُسكن من قبل (أو من بعد) جرت زراعتها في الفترة البيزنطية: اكتُشفت في أعماق صحراء النقب، مثلاً، ست بلدات بيزنطية مقامة فوق ما كان أرضا زراعية في ذلك الوقت. وربما لم يحدث سوى في القرن العشرين أن وصل عدد السكان أو تجاوز ما كان عليه في القرن السادس.

ربما يرجع انهيار فلسطين البيزنطية إلى هذا النمو المفاجئ في عدد السكان. ففي سيثوبوليس (بيسان الحديثة) أظهرت الحفريات أن مواخير البلدة كانت مزدهرة، بينما

كسدت الحمامات العامة وأصبحت موضة قديمة: توقف الناس عن استخدام الحمامات الخمسة في البلدة خلال العهد البيزنطي بينما كانت مزدهرة في العهد الروماني. قد نجد التفسير بصفة جزئية لدى الرهبان الذين كرهوا الاستحمام وأثنوا على من يستطيع عدم الاستحمام أطول فترة ممكنة: تروي قصة من قصص آباء الصحراء بإعجاب كيف عثر راهب متجوّل على ناسك متعبد في كهف في أقاصي الصحراء «صدقوني أيها الأخوة، أنا بامبو الوضيع، شممت الرائحة الطيبة لذلك الأخ عن بعد ميل من الكهف». لم يكتف الرهبان والمعجبون بهم، في ذلك الزمن، بمجرد تجاهل القواعد الأولية للنظافة، بل سخروا منها أيضاً.

ورغم ذلك، لم يكن الأمر سيادة ذائقة ما وحسب، بل كان الناس يعانون من مشاكل البنية التحتية أيضاً. فالقنوات الرومانية القديمة أصبحت تعاني من الانسداد، وفي بيسان استعاض الناس عن حفر الصرف المبلطة جيدا ـ التي بنيت خلال الإمبراطورية الوثنية وأصبحت في حالة يرثى لها ـ بقنوات المجاري المكشوفة. كما لم يُعثر في جميع حفريات المواقع البيزنطية في فلسطين والأردن سوى على مرحاضين، يقع أحدهما فوق مطبخ للرهبان.

وقد أسفر هذا الوضع عن انتشار موجة من الأوبئة على امتداد القرن السادس. في تاريخ يوحنا موسكوس صفحات كثيرة عن الطاعون، وتدل شهادة علماء الآثار المحدثين على انتشار الجذام والطاعون والسل بكثرة في ذلك الزمن، بينما انتشر القمل إلى حد غير مسبوق في كل تاريخ الشرق الأوسط. ويعتقد العديد من المؤرخين في الوقت الحالي بضرورة البحث في الآثار المدمرة للعدوى والأوبئة في أواخر القرن السادس، عن أسباب الانهيار السريع للشرق البيزنطي.

اعتدت التجوال صباح كل يوم من أيام إقامتي في القدس في أزقة وممرات البلدة القديمة، باحثا عن بقايا العهد البيزنطي، صحبة المطران هاغوب. ارتفعت روح المطران المعنوية نوعا ما بعد لقائنا الأوّل، وكان دائما في أفضل حالاته وسط أحياء المدينة وممراتها القديمة المقببة، يشير إلى بعض البقايا المعمارية المتناثرة حولنا أو إلى بعض السكان الجدد غير المألوفين في المدينة القديمة.

«أترى ذلك المتسول الأعمى؟» نعم، الرجل الجالس على مقعد بعجلات أمام القوس الصليبي. الرجل أعمى من التاسعة حتى الثانية عشرة فقط، بعدها يخلع نظارته السوداء ويقوم بعمل آخر، يشتغل نادلا في مطعم للكباب في الحي الإسلامي. كباب جيدا جدا. هناك، ترى كنيسة القديس يوحنا المعمدان، كانت بها بعض المشغولات الحجرية البديعة، لكن الروم وضعوا مصوّرات جصية جديدة بشعة على الزوايا الخارجية: صفراء وزرقاء لامعة. ارتجف المطران «يا لذائقة الروم المحدثين، رأيت الفسيفساء الجديدة التي وضعوها في كنيسة القيامة؟ كأنها قادمة من والت ديزني. والآن انظر هناك إلى أسفل، أترى الرجل الطويل الذي يبيع مجسمات خشبية من خشب الزيتون؟ اسمه عيسى. اشتغل طباخا لسنوات طويلة، كان مختصا في عمل الساندويتشات لحفلات الزفاف، واشتهر بساندويتشات الكبد، وسرعان

ما أصبح أشهر متعهد في البلدة القديمة. وذات يوم لاحظ شخص أن القطط في حارته تتناقص كلما حدث حفل زفاف. انتشر الخبر بين الناس، لكنهم واصلوا الإقبال عليه. وفي نهاية الأمر لم يعد قادرا على تلبية الطلبات: تناقصت القطط إلى حد كبير، لذلك اتجه إلى التجارة في مشغولات خشب الزيتون. ومع ذلك كان أكثر إنسانية في علاقته بالقطط من راهب قبرصي يرغم قططه على الصوم في المناسبات الدينية. يغلق الباب على القطط وتسمع صراخها في الليل. ولا يكتفي بمنع القطط عن الأكل في مناسبات الصوم الدينية، بل يصاب مرة في العام تقريبا بهاجس عودة المسيح. لذلك يرغم القطط المسكينة على الصراخ طوال الليل لمدة أسبوعين في انتظار القدوم الثاني للمسيح. ضوضاء مرعبة. والآن.. أنظر إلى هذا العمود...

ربما كانت أكبر مفاجآت جولاتنا في القدس اكتشاف قلة ما تبقى من القدس البيزنطية. فبينما ما زالت في شمالي سوريا مئات من البلدات والقرى القديمة مجهولة وبلا أسماء في حالة سليمة تقريبا، لا يوجد في القدس ـ التي كانت ذات يوم أعظم مدن الولايات في الإمبراطورية المسيحية ـ سوى شظايا مفككة من أرضيات الفسيفساء، وأكوام من أعمدة منهارة توحي بما مضى. وإذا أراد الإنسان البحث عن المدينة مقتفيا ما كتبه موسكوس يجد نفسه في أقبية رطبة وسراديب مظلمة، وحتى في هذه الأماكن لم يبق سوى القليل مما يثير الاهتمام.

المفارقة أن البناء البيزنطي الكبير الباقي عبارة عن مسجد ـ قبة الصخرة ـ التي زيّنها الحرفيون البيزنطيون للفاتحين المسلمين في أواخر القرن السابع، بعيد انهيار القسم الشرقي من الإمبراطورية. قال رونسيمان عن الصخرة « أعظم نماذج أسلوب البناء المستدير في العمارة البيزنطية ».

لم يبق من كنيسة القيامة الأصلية التي بناها قسطنطين سوى القليل، تظهر بقايا الأعمدة خلف فجوة سوداء في جانب المصلى السرياني. لكن معظم البناء الباقي يرجع إلى عهد الصليبيين، إلى جانب إضافات قليلة في العهد العثماني. اختفت، أيضاً، كنيسة نيا، كنيسة جوستينيان الجديدة المهيبة المُكرّسة لمريم أم الرب، التي اشتغل فيها صديق موسكوس، آبا ليونيتوس من سيليزيا، لمدة أربعين عاما. اختفت ولم يبق منها سوى كتل متناثرة من الجدران وتراكيب مقببة غريبة الشكل في عديد من سراديب الحي اليهودي. قام علماء الآثار بالتنقيب عن البقايا ويبدو أن الاكتشافات ألهبت حماستهم. ومع ذلك يستحيل على رجل الشارع تصوّر أن تلك الأكوام الحزينة من الطوب والحجر تفوّقت في الماضي على كنائس جوستينيان الموجودة حاليا ـ كانت أعظم من آيا صوفيا في استانبول أو سان فيتال في رافينا ـ ناهيك عن الكلام عنها كما يتكلم الناس عن آيا صوفيا باعتبارها أعظم نماذج العمارة البيزنطية.

للكاردو ـ بازار القدس المركزي في العهد البيزنطي ـ قصة مشابهة. فقد هيمن ذلك المكان على صورة من الفسيفساء للمدينة يرجع تاريخها إلى القرن السادس للميلاد، جرى اكتشافها

في مادبا شرقي الأردن عام ١٨٨٤. كما عُثر على بقايا السوق في أماكن مختلفة من القدس. قرب كنيسة القيامة، وفي الأحشاء السفلية لمركب من الأبنية الروسية الأرثذوكسية المعروفة باسم هوسبيس الكسندر، يستطيع الإنسان مشاهدة مائة ياردة من أروقة السوق وبلاطه، وكذلك محاولة متواضعة لبناء قوس للنصر على الطريقة البيزنطية. مرّة أخرى، يظهر الكاردو من فجوة في أرضية الحي اليهودي، ممتدا على مسافة مائتي ياردة إلى جانب ممر ضيق لدكاكين جديدة تبيع شمعدانات برونـزية، وأعلام إسرائيل، وفانلات صيفية عليها كتابة بالعبرية للسوّاح الأميركيين، ثم يختفي في جانب أحد المطاعم، ولا يظهر أبدا.

يوجد أحد الأماكن التي لا ترى فيها أدنى دلالة بيزنطية على تقاطع للطرق قرب باب العمود. وقد ذهبت إليه صحبة المطران هاغوب في عصر يوم شتائي كئيب بعد تناول الطعام في مطعم أرمني قرب المستوصف النمساوي. وقف المطران على الرصيف إلى جانب مظلة بلاستيكية جديدة في موقف للباص، وسألني ماذا أرى.

جازفت بالقول: ❊ أرى موقفا لانتظار الباص ».

❊ ألا ترى شيئا آخر؟ ».

❊ أرى بالوعتين ».

❊ ترى موقفا للباص وبالوعتين، فقط ؟».

❊ لا أرى شيئا آخر، وماذا بعد ؟ ».

❊ هذه البالوعة كل ما يشير إلى موقع أحد أهم الأديرة الأرمنية في العهد البيزنطي. هناك إلى الشمال الشرقي قرب محطة الوقود كانت أبنية دير القديس ستيفن، أكبر أديرة الروم في القدس، وما زالت أساسات كنيسته قائمة تحت الكنيسة الصغيرة التابعة لكلية الآثار الفرنسية ـ الدومينيكان، بينما اعتقد الناس أن أبنية الدير اختفت منذ زمن بعيد.

ذكرت كيف أقام سوفرونوس قدّاسه الأخير في كنيسة القديس ستيفن قبل سقوط القدس، وسألت المطران متى تم اكتشاف الدير. ❊ تم اكتشاف الديرين ـ دير الأرمن ودير الروم ـ عندما شرع الإسرائيليون في بناء طريق مزدوج يربط مستوطنات الضفة الغربية بالبلدة القديمة: قال المستوطنون إنهم يريدون طريقا جديدة لا تمر بالأحياء العربية بسبب قذف الحجارة في الانتفاضة. وقام علماء الآثار الإسرائيليون بالتنقيب، نقلوا الفسيفساء التي تخصنا إلى القدس الغربية، ثم ردموا الموقعين ».

❊ ألم تحتجوا ؟».

❊ نحتج ؟ توسلنا كي يحفظوا الدير، لكنهم تجاهلونا. قالوا طريقهم أهم من الدير. وكل ما حافظوا عليه كان واحدة من حجرات الدفن التي تخصنا. وهي تحت هذه البالوعة، هنا. وعدوا في البداية بتمكين الحجاج من الدخول، وكذلك إنارة المكان، ولم يتحقق شئ من ذلك. المسيحيون في القدس أقلية بلا نفوذ، ولا نملك جماعة للضغط (لوبي) ولا نملك حتى حق التصويت. نتيجة لذلك، اختفى عن وجه الأرض في غضون أشهر قليلة اثنان من أكبر الأديرة

المكتشفة في الشرق الأوسط. ولن يعرف المار هنا أن المكان يضم آثارا مسيحية ـ إن لم نقل يضم اثنين من أهم الأديرة في فلسطين ».

قلت: « ربما كانت تنقصهم الأموال الكافية للصيانة، والآثار تتعرض للهدم بالجرافات في كل العالم ».

أجاب المطران: « عثر البناؤون، في وقت اكتشاف الديرين، على قبر حاخام يهودي من القرن الخامس عشر في قرية سلوان الفلسطينية، على مسافة ميل من هنا. ولا قيمة كبيرة لذلك الموقع من ناحية أركيولوجية، لكنهم يأخذون السوّاح في جولات إلى المكان، ويحاولون الإيحاء أن القدس كانت تحت هيمنة اليهود على الدوام. والحقيقة مختلفة تماما: كانت الطائفة اليهودية في القدس على مدار ألف وثمانمائة عام أقلية ضئيلة. وبما أن الوضع السياسي النهائي للمدينة لم يتحدد بعد، يحرص الإسرائيليون على حجب الحقيقة، أو تمويهها على الأقل. يريدون النظر إلى القدس كعاصمة أبدية تخصهم، وهذان الديران شهادة على وجود قدس كانت تحت هيمنة مسيحية، لذلك تعرّضا للإخفاء ».

قلت: « أنا متأكد من وجود سبب مقنع وراء تجريف الديرين، ولا أصدق نظرية المؤامرة ».

قال هاغوب عابسا: « وعدونا بوضع لوحة تذكارية، وبعد مرور سنتين هل ترى سوى البالوعة ؟ مازالت الفسيفساء الخاصة بنا عندهم، وكذلك العظام المأخوذة من حجرة الدفن الأرمنية. وهي موجودة في المخازن خلف المتحف الإسرائيلي، ربما نحصل عليها إذا التزمنا الهدوء وأحسنا التصرّف، وإلا ضاعت. بالنسبة للدير، ربما ننتظر قرنا آخر، حتى تصبح هذه الطريق غير صالحة للاستعمال ونتمكن من استعادة المقام الخاص بنا ».

تجولنا في موقع الديرين المطمورين، وهاغوب يشير إلى أماكن تقريبية لوجود المباني: هنا فسيفساء، هناك مستوصف، وهنا كنيسة للصلاة، وهناك مساكن الرهبان.

كان مركبا ضخما من الأبنية قال هاغوب. « من هنا حتى مكان محطة الوقود. هنا كان أوّل حي من أحياء الأرمن، دلالة أخرى على استمرارية الوجود المسيحي في هذه المدينة ».

اتجهنا إلى المرآب، خلفه بقليل تقع مدرسة الآثار الفرنسية، التي وعدني هاغوب بالحصول على بطاقة تمكنني من دخول مكتبتها. وفي طريقنا بجوار مضخات محطة الوقود أشار هاغوب إلى لافتة في الحديقة المبنية حديثا بجوار المحطة « أنظر، هذه اللافتة جديدة، ربما فرغوا من وضعها قبل قليل » اقتربنا لنقرأ المكتوب باللغتين العبرية والإنكليزية وبلا وجود للعربية

بلدية القدس/ وزارة النقل

حديقة الطريق رقم واحد الأركيولوجية

بقايا الحائط الثالث

قال المطران هاغوب: « لا أصدق ما أرى ».

سألت: « ما هو الحائط الثالث ؟ ».

« الحائط الذي بناه هيرود أغيبا قبل ثورة اليهود عام ٦٦ للميلاد. هذا اكتشاف هام. انخرط العلماء في سجال على مدار سنوات حول موقعه، ومن المنطقي الحفاظ عليه، لكن الحفاظ عليه في وقت إزالة ديرين أمام أعيننا ـ وفي مكان قريب منه ـ يدل على تعصب قومي أعمى. لم يضعوا علامة للتذكير بآثارنا. فلا ذكر لها، لا شئ. كأنها لم توجد من قبل. هاهم يعثرون على عشرة أقدام من حائط من عهد ملكهم هيرود ويقيمون حديقة أركيولوجية خاصة للحفاظ عليه، أما زلت تتهمني بعقدة الاضطهاد ؟ ».

فحصت لاحقا في أرشيف الجيروزاليم بوست، وقسم الآثار في مدرسة الآثار الفرنسية ما قاله المطران هاغوب. فعلى غرار العديد من النزاعات التي قد تبدو قليلة القيمة، اتضح أن مسألة مباني الأديرة تصاعدت إلى ما يشبه الفضيحة العالمية. شعرت الكنائس المسيحية في المدينة القديمة بالغضب الشديد نتيجة قرار السلطات ردم اثنين من المقامات المسيحية الرئيسية، كما شعرت بالغضب نتيجة عدم توفير الحماية للآثار، مما أتاح لمخربين حسب رواية الجيروزاليم بوست ـ ثمة ادعاء أنهم من اليهود الأرثذوكس المتشددين من حي مائه هشعاريم القريب ـ صب القطران على قطعة فسيفساء بيزنطية يرجع تاريخها إلى القرن السادس للميلاد، ووضع أكوام من الحجارة في مدخل مدفن مسيحي. لذلك، قال قادة الكنيسة للصحافة العالمية أن الآثار التي تهم اليهودية تنال الرعاية والاحترام بينما يجري إهمال الآثار المسيحية القديمة كجزء من الحملة الإسرائيلية لتأكيد حقوق اليهود في المدينة. وعندما لم تجد تلك التصريحات الصدى المطلوب، أصدر رؤساء الكنائس المسيحية الرئيسية في الأرض المقدسة بيانا مشتركا للاحتجاج على سياسة إسرائيل الثقافية، حيث أشاروا إلى ما وصفوه «بالنهب » الإسرائيلي للتراث الأركيولوجي المسيحي، وهددوا بطلب الحماية الدولية لآثارهم ما لم « تتخذ إجراءات مناسبة للحفاظ على تراثنا المسيحي العام ».

ولم يتم العثور في الواقع ـ حسب التقرير الأركيولوجي الإسرائيلي الرسمي المعنون « الحفريات في الحائط الثالث » ولعل العنوان دلالة كافية ـ على ديرين، بل تم العثور على أربعة أديرة مختلفة في الحفريات شمالي باب العمود، كما تم العثور على فندقين لإقامة الحجاج، وعلى مقبرة مسيحية ضخمة. علاوة على ذلك، ثم العثور بعد فترة وجيزة على مقام بيزنطي خامس، عبارة عن مصلى صغير في مدفن مزين بالفسيفساء وصور نادرة من الجص، قرب باب الخليل، خلال أعمال في مشروع ماميلا. تحرّك هذا المشروع دوافع سياسية تستهدف « دمج » البلدة القديمة بالمدينة الجديدة بطريقة تحول دون تقسيم المدينة كما كان الأمر بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧. ورغم الاحتجاجات المسيحية لم يجر الحفاظ على شئ من تلك المقامات، بل دفنت جميعها، باستثناء المصلى الصغير خارج باب الخليل، الذي جرى تجريفه لبناء مرآب تحت الأرض للسيارات. « يعتمد مشروع ماميلا برمته على المرآب » ذلك ما قاله جدعون أفني من سلطة الآثار الإسرائيلية للجيروزاليم بوست، في معرض

تفسيره لهذا الموضوع.

ربما لا يوجد مكان آخر في العالم يجري فيه تسييس الماضي البعيد كما يحدث في الأرض المقدسة. فقد أشارت إسرائيل في بيان استقلالها عام ١٩٤٨ إلى « إعادة قيام الدولة اليهودية » في محاولة لتأسيس حقها التاريخي في الوجود استنادا إلى سابقة توراتية. ومنذ عام ١٩٦٧ يجري استخدام المنطق نفسه في عملية استعمار الضفة الغربية والجولان: فكثير من المستوطنات اليهودية المقامة هناك، مثل شيلو وجيفون وكاتزرين، بنيت عن قصد في أماكن وُصفت كمواقع لاستيطان اليهود القدماء قبل ثلاثة آلاف عام.

ومن شبه المستحيل في وضع تقوم فيه المطالب السياسية على تفسيرات متناقضة للتاريخ، أن يقف علماء الآثار على الحياد وأن يلتزموا الموضوعية. وقد اتُهم علماء الآثار الإسرائيليون منذ فترة طويلة بإجراء حفريات لا تستهدف إضاءة التاريخ العام للمنطقة، بل الكشف عن تاريخهم الخاص، وقيل أنهم تجاهلوا في بعض الحالات الطبقات التركية والعربية والبيزنطية باعتبارها قليلة الأهمية. والواقع أن الكثير من تلك الاتهامات عن التحيزات السياسية صدرت عن ليبراليين إسرائيليين أثار حنقهم ما اعتبروه اتجاها يمينيا قوميا داخل المؤسسة الأركيولوجية في البلد.

ففي عام ١٩٩٢، اتهمت عالمة الآثار المقيمة في القدس شولاميت غيفع علم الآثار التوراتية الإسرائيلي بكونه « أداة في يد الحركة الصهيونية للعثور على صلة بين التاريخ القديم لأرض إسرائيل وظهور دولة إسرائيل الحديثة ». وأضافت أن الأركيولوجيا الإسرائيلية » فقدت استقلاليتها كطريقة علمية وأصبحت ذراعا تنفيذيا لحركة أيديولوجية، أصبحت أداة سياسية وقومية تـزوّد الدولة الحديثة » بالجذور ». كما ردد الكاتب الإسرائيلي المرموق عاموس إيلون بعض مخاوف غيفع في مقالة طويلة نشرها في مجلة نيويورك لعرض الكتب، عن السياسة وعلم الآثار. قال إيلون إن أسوأ التعديات وقعت في السنوات الأولى من عمر الدولة اليهودية : « حدث اندفاع، في مناخ التمركز العرقي على الذات السائد في السنوات الأولى، من أجل العثور على مواقع يهودية، والمبالغة في التنقيب عنها، والحرص على اطلاع الجمهور على الطبقة اليهودية للموقع على حساب طبقات أخرى حتى لو كانت تلك الطبقات أكثر دلالة وأهمية من ناحية تاريخية أو فنية. كانت مهمة علم الآثار البرهنة على مسألة تخص اليهود في الأرض المقدسة، ولم تتم البرهنة بالضرورة كما ينبغي لها أن تكون، أي فحص البقايا المادية لتحديد ظروف الثقافات والحضارات القديمة في بلد تكثر فيه وتتنوّع ».

من ناحية أخرى، هاجم ليبراليون إسرائيليون الطريقة التي يُعرض بها تاريخ المنطقة للسوّاح. فقد هاجم ميرون بنفنستي نائب رئيس بلدية القدس، وهو مؤرخ مرموق للفترة الصليبية ، التحيّز في متحف برج داود لتاريخ القدس، المتحف الرئيسي في البلدة القديمة «بعد فترة الإسرائيليين القدماء » قال بنفنستي معلقا : «يخبرنا النص المكتوب أن المدينة تعرّضت لاحتلال الغرباء، وفي وصفهم بالغرباء ما يعزز طبيعة المنظور الحصري للمتحف

ـ فلا ينال الشرعية سوى المطلب اليهودي/ الإسرائيلي، لكن الفترة الإسرائيلية القديمة لم تستغرق أكثر من ستمائة سنة، بينما وُصف كل ما تلاها كسلسلة من الاحتلالات ـ الفارسية والبيزنطية والمملوكية والعثمانية والبريطانية ». علاوة على ذلك، أشار بنفنستي أن كلمة « العرب » لا تظهر حتى مرة واحدة في معرض ضخم يغطي قرابة ثلاثين قاعة، أما الاسم العربي الوحيد المذكور في المتحف، فهو اسم الفاتح، الخليفة عمر. ويستنتج بنفنستي: «يجري عرض تاريخ مشوّه، رواية المنتصر عن التاريخ ».

كان الأب ميشيل بيكشيريلو، من معهد الفرانسيسكان للدراسات التوراتية أهم شخص رغبت في لقائه لمناقشة كل هذه الأشياء معه. وهو فرانسيسكاني إيطالي يعيش في القدس منذ عام ١٩٦٠، وقد اكتشف بمفرده بداية من ذلك التاريخ عالم الأبنية الدينية الموصوف في « المروج الروحانية » حيث أزاح الستار عن العديد من الأديرة البيزنطية غير المعروفة من قبل، والعديد من الكنائس والدور التي يرجع تاريخها بصفة أساسية من القرن السادس حتى القرن الثامن للميلاد، وفي سياق هذا العمل كشف للعيان كنوزا مدهشة من أرضيات الفسيفساء القديمة، بينها أفضل قطع الفسيفساء المكتشفة في الشرق. وقد شاهدت بعضها أثناء عبوري الأردن في الطريق إلى إسرائيل، حيث توجد أجمل القطع في محيط مادبا وجبل نبو، وتطل مباشرة على جسر اللنبي، مركز الحدود المؤدي إلى الضفة الغربية.

وخلافا لمجموعة الفسيفساء التي رأيتها لدى وليد جنبلاط، ثمة القليل من الزهد في قطع بيكشيريلو، ففيها من نبض الحياة ما يوحي بإحياء الذائقة الهيلينية ـ إن لم نقل نهضة كلاسيكية كاملة ـ في الفترة المباشرة بعد جوستينيان: صيد نمور، دوامات متداخلة من النباتات الشائكة، تجسيد للمواسم السنوية متوّجة على العرش تنظر إلى رعاة يمشون بين أغصان الدوالي، ساتيرات يعزفون على آلة الفلوت يقودون موكبا لرفيقات باخوس، بينما ينقض كيوبيد من أعالي أشجار البرتقال.

ورغم ذلك، تمتاز المكتشفات الجديدة بقيمة تتجاوز علم الجمال أو تاريخ الفن. وربما تمثلت أهميتها المفاجئة في كشفها لدرجة مذهلة من الاستمرارية. فالفتوحات العربية في القرن السابع ـ حسب رواية بيكشيريلو ـ لا تظهر من ناحية أركيولوجية: تغيّر الحكام، لكن الحياة سارت كالمعتاد من قبل. وفي الواقع، يرجع تاريخ أفضل المكتشفات « البيزنطية » التي عثر عليها إلى فترة ما بعد الفتح العربي مباشرة، حيث ساد النظام، ازدهرت التجارة، وتحررت المنطقة من الضرائب المجحفة التي فرضها جباة الضرائب البيزنطيون. وقد كتب بيكشيريلو في كتابه « فسيفساء الأردن » الذي يوجز ما قام به في حياته « بحث علماء الآثار عن حالة انقطاع بين العهد الإسلامي وما قبله مسألة غير مجدية، فعلم الآثار يُظهر استمرارية بين العهدين ».

ثمة ما يفسر هذا الأمر. فكما جرى تجنيد المرتزقة الانكلو ـ ساكسون في أوروبا الغربية للدفاع عن الحدود الشمالية لروما أمام الهجمات البربرية التي أسقطت الشطر الغربي من

الإمبراطورية الرومانية، جرى تجنيد القبائل العربية المسيحية من جانب الحكام البيزنطيين للدفاع عن التخوم الشرقية قبل ظهور الإسلام بعدة قرون. عقد جوستينيان، مثلاً، تحالفات مع قبيلتين من القبائل العربية المسيحية: مع بني غسان وبني تغلب، حيث أسكن القبيلتين ضمن حدود الإمبراطورية المسيحية. وقد كان العرب في زمن الفتوحات العربية أقلية ذات وزن في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية.

كذلك، ألمح بيكشيريلو، أن دخول العرب إلى فلسطين حدث بطريقة تدريجية أكثر من المعروف سابقا، وكان بطيئا إلى حد أن الفتح نفسه لم يُحدث تغييرا فوريا في التكوين العرقي لسكان البلد. وسرعان ما تبنى السكان بعد الفتح اللغة العربية، وتحول العديد منهم على مر القرون إلى الإسلام، أما جيوش الفاتحين نفسها فلم تكن كبيرة الحجم، ولم تسهم في بداية الأمر سوى في خلق طبقة عسكرية تحكم السكان. لم يحدث تبدل كبير الحجم في السكان، كما أن الفلسطينيين الذين نراهم اليوم ـ المسيحيون منهم بشكل خاص ـ هم على الأرجح أحفاد الخليط نفسه من الشعوب التي مر عليها موسكوس في القرن السابع خلال تجواله في المنطقة: مزيج متعدد من أعراق مختلفة مرت على هذه المنطقة منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ.

تكتسب شهادة بيكشيريلو أهميتها الفائقة لأنها تمثل ردا على التواريخ الرسمية الإسرائيلية التي ترسم صورة غزاة من البدو النهابين الذين اندفعوا من الصحراء فذبحوا أو طردوا السكان الأصليين، وتركوا البلد صحراء بلا سكان ـ حتى ظهور الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر. ورغم حقيقة صعوبة العثور على مؤرخ جاد في إسرائيل وخارجها يحاول الدفاع عن هذا التشويه الفج لتاريخ فلسطين في القرون الوسطى، إلا أن تلك الصورة ما زالت شبه قائمة بطريقة غريبة في الدعاية الحكومية. في «حقائق عن إسرائيل» مثلاً، الكتاب الصادر عن وزارة الخارجية الإسرائيلية مقدمة من ١٥ صفحة عن «تاريخ أرض إسرائيل». نرى في المقدمة، بعد عرض تفصيلي جدا لممالك إسرائيل التوراتية، أن ١٤ قرنا من التاريخ الإسلامي للمنطقة مكتوبة في قسم صغير بعنوان «العرب في أرض إسرائيل»: بدأت هجرة العرب إلى البلد وهجرتهم منه في زمن الفتح العربي للأرض في القرن السابع، حسب تقلبات النمو أو التدهور الاقتصادي، ومع نهاية القرن التاسع عشر، عندما شجعت التنمية اليهودية المتزايدة النهوض الاقتصادي والاجتماعي، جاء عديد من العرب من بلدان مجاورة بحثا عن فرص عمل أفضل، وأجور أعلى، وظروف حياة أكثر تطورا».

اتصلت هاتفيا ببيكشيريلو واتفقنا على تناول الشاي معا بعد الظهر. جلسنا في صومعته الصغيرة في معهد الفرانسيسكان للدراسات التوراتية، وتكلمنا فترة طويلة من الوقت عن عمله.

قال بيكشيريلو: «تشكك جميع الحفريات التي أجريتها في الرأي القائل أن الغزوات العربية أدت إلى تدمير المباني المسيحية، وأن العرب اضطهدوا المسيحيين، ومنعوا بناء كنائس جديدة.

فمجرد وجود هذا الكم من الفسيفساء المسيحية التي يرجع تاريخها إلى العهد الأموي يشكل دليلا قويا ليس على استمرارية الوجود المسيحي وحسب، بل وعلى تسامح الحكام المسلمين أيضاً ».

سألته عن التحيّز الذي سمعت عنه في أوساط المؤسسة الأركيولوجية الإسرائيلية، فكانت إجابته واضحة. بصرف النظر عما كان عليه الوضع في السنوات الأولى، فإن الطرق الأركيولوجية التي يستخدمها الإسرائيليون في الوقت الحالي تمتاز بمهنية عالية، وقد جرى التنقيب في المواقع التاريخية الإسرائيلية ـ حسب رأيه ـ بنزاهة، دون تركيز على الدين. ورغم ذلك، شدد على وجود تفاوت خطير في عرض الإسرائيليين لتلك المكتشفات.

« صيانة البقايا المسيحية أقل جودة من طريقة معالجة البقايا اليهودية، صحيح أن الصيانة مشكلة في كل مكان آخر، لكنها تتحول بسهولة، هنا، إلى مسألة سياسية، وعلى الإسرائيليين إبداء عناية مضاعفة. الحقيقة أن في الأرض المقدسة العديد من الجماعات، ولكل منها حقوقها، وإذا أرادت دولة ما نيل الاحترام، فعليها احترام الآخرين ».

سألته «كيف يتجلى هذا الإهمال ».

« يحرصون أشد الحرص على الكُنس اليهودية » قال بكشيريلو «يغطونها بواقيات، ويمنعون الناس من الوقوف فوق الفسيفساء. لكنهم يستسهلون إعادة دفن الكنائس والأديرة المسيحية المكتشفة، كما حدث للأديرة قرب باب العمود. لن يفكروا أبدا بعمل شئ كهذا لمعبد يهودي، ولن تسمح لهم المؤسسة الدينية [اليهودية] القيام بعمل كهذا. أما الأبنية المسيحية فهم يتركونها كما عثروا عليها، هذا إذا لم يقوموا بتجريفها. توجد كل قطعة فسيفساء عثرت عليها، في الأردن، تحت واقيات بنيت خصيصا، وحتى في متاحف بنيت لهذا الغرض. هنا توجد كنائس فيها فسيفساء جيدة مطروحة في العراء في كل إسرائيل ».

سألت: «هل يفرق الأمر ؟ ».

« يفرق كثيرا، فطالما لم توضع المواقع المسيحية تحت الحراسة يمكن مهاجمتها ».

ظهر تقرير في الجيروزاليم بوست، قبل حديثنا بأيام قليلة، عن هجوم على كنيسة بيزنطية غير محمية في ممشيت، قرب مفاعل ديمونا النووي. فقد قام مخربون، يشتبه أنهم من المتدينين اليهود، بقلع الفسيفساء الملونة، وتكسير الأعمدة التي يرتكز عليها سقف الكنيسة. وذكر التقرير أنها حادثة من سلسلة حوادث وقعت في الأسبوعين السابقين، وشملت تخريب كنيسة بيزنطية أخرى في سوسيتا، في هضبة الجولان. وقيل أن المتدينين الذين، كما يبدو، يتحملون مسؤولية تلك الهجمات، يعارضون الحفريات الأركيولوجية عموما، لذلك لم يستهدفوا المواقع المسيحية بصفة خاصة، لكن تلك المواقع احتلت رأس القائمة في أعمالهم.

« ولكن » واصل بيكشيريلو كلامه « المسألة ليست حماية من المخربين وحسب، فالفسيفساء » وتوقف صامتا بحثا عن الكلمات «كالمسبحة إذا قُطع خيطها، ما أن تفلت قطعة صغيرة حتى تنهار قطعة الفسيفساء. ويضيع كل شئ خلال وقت قصير، كل شئ ».